العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مسرح سعد الله ونوس
(مسرحية "مغامرة رأس المملوك جابر.. نموذجاً)

أ.م.د/ فرج عمر فرج
أستاذ الإعلام والمسرح المساعد بكلية التربية النوعية بجامعة المنوفية، ورئيس قسم الدراما بكلية الآداب، جامعة بني سويف

د/ منى مصيلحي حامد حبرك
(مدرس الإعلام والمسرح بكلية التربية النوعية بجامعة المنوفية)

إيمان عبد الفتاح عبد السلام الطباخ
(أخصائي مسرح معلم أول بالمدرسة الحديثة الاعدادية بنات بإدارة منوف التعليمية)

ملخص بحث

مشكلة الدراسة: تتبلور مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيس التالي: لماذا وكيف تناول سعدالله ونوس العلاقة بين الحاكم والمحكوم في أغلب أعماله المسرحية بهذا الشكل الكثيف والمتكرر حتي أصبحت ظاهرة فى مسرحه؟.

أهمية الدراسة :

أولاً: تتناول هذه الدراسة علاقة حيوية لا يمكن تصور استمرارية الواقع البشرى بدونها وهى العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ثانياً: خطورة الآثار المترتبة على اشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهذه الخطورة تشمل كافة النواحي النفسية ، والصحية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأمنية أيضاً .

أهداف الدراسة :

أولاً: التعرف على اتجاهات سعدالله ونوس فى تناوله للعلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مسرحه.

ثانياً: التعرف على طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم كما تعكسها النصوص المسرحية عينة الدراسة.

نوع الدراسة : تعد الدراسة من البحوث الوصفية فى تحليل المضمون.

عينة الدراسة: مغامرة رأس المملوك جابر

أهم نتائج الدراسة: كشفت الدراسة أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة تنافرية، سلبية، ومتوترة، قائمة على الظلم والاستبداد من قبل الحاكم والذل والخضوع من قبل المحكوم . وأن هناك انفصال تامةبين الحاكم والمحكوم، وأن كلاهما مغترب عن الآخر.

Research summary

The relationship between the ruler and the ruled in the theater of Saad Allah wanous

The problem of the study: The problem of the study crystallizes in the following main question: Why and how did Saadallah wanous deal with the relationship between the ruler and the ruled in most theatrical works in this dense and repeated manner until they became apparent in his theater?

the importance of studying:

First: This study has a vital relationship without which the continuity of human reality cannot be conceived without which is the relationship between the ruler and the ruled.

Second: The serious effects of the problematic relationship between the ruler and the ruled, and this risk includes all aspects of psychological, health, economic, social, and security as well.

Objectives of the study:

First: Learn about the directions of Saadallah wanous in his handling of the relationship between the ruler and the ruled in his theater.

Second: Knowing the nature of the relationship between the ruler and the ruled as reflected in the theatrical texts, the study sample.

Type of study: The study is considered descriptive research in content analysis.

Study Sample: Adventure of the Mamluk Jaber

The most important results of the study: The study revealed that the relationship between the ruler and the ruled is a repulsive, negative, and balanced relationship, based on injustice and tyranny by the ruler, humiliation and submission by the ruled. And that there is complete separation between the ruler and the ruled, and that both are alienated from the other.

مقدمة :

يُعد سعدالله ونوس من أعلام المسرح العربى، وأكثرهم ارتباطًا بالأنشطة الإنسانية وتيار التنوير؛ ولذلك لم يكن غريبًا أن تختاره اليونسكو ١٩٩٦، من بين كل المسرحيين العرب لكتابة رسالة يوم المسرح العالمى، التى تلقى بكل اللغات من فوق المسارح فى ٢٧ مارس من كل سنة، "ولا كان غريبًا أن يرشحه مجمع دمشق فى ١٩٩٧ لجائزة نوبل التى تمنحها الأكاديمية الملكية السويدية، ولولا رحيله لكان من المحتمل فوزه بها"[١]. وقد تُرجمت الكثير من أعماله إلى الفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية والبولونية والأسبانية.

ولقد رأت الباحثة أن المسرح السياسي، وخاصة العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، كانت سمة واضحة في مسرح سعد الله ونوس، مما جعلها أن تقرر أن ترصد بالوصف والتحليل هذه الظاهرة؛ لتقف على الأسباب والدوافع التى جعلت هذا الكاتب الكبير أن يتناول هذه العلاقة في مسرحه بهذا الشكل الكبير ، كما أن هناك الكثير من الأسئلة تريد الباحثة أن تتوصل إلى إجابات وتوضيح لها من خلال هذه الدراسة .

مشكلة الدراسة:

لما كان المسرح لا يمكن أن ينفصل عن الواقع الذى يتواجد فيه، لأن المسرح دائماً وأبداً يعبر عن المجتمع الذي يعيش فيه، "ولا يستطيع أن يبقى بعيداً عن اضطرابات العصر الذى يرى فيه النور"[٢]؛ فإن تناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مسرح أى كاتب – مهتم بهذه العلاقة – لا يجب أن ينفصل عن الواقع. ولكن المشكلة ليس فى تناول سعدالله ونوس للعلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مسرحه، – فكثير من الكتاب تناولوها– ولكن المشكلة هى لماذا تناولها فى أغلب أعماله، حتى تحولت إلى ظاهرة واضحة عنده، الأمر الذى يتطلب من الباحثين والمهتمين بالشأن المسرحي أن يقفوا بالفحص والدرس عند هذه الظاهرة ليحللوها ويحددوا أسبابها ونتائجها. وقد رأت الباحثة أن تناول إشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مسرح الكاتب سعد الله ونوس ربما يعطينا فكرة عن طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم في العالم العربي، علي اعتبار أن مسرحه كان موجهًا لكافة الشعوب العربية وليس الشعب السوري فقط. وبناءاً على ماسبق يمكن تحديد مشكلة الدراسة الحالية فى الإجابة على التساؤل الرئيس التالى:

لماذا وكيف تناول سعدالله ونوس العلاقة بين الحاكم والمحكوم في أغلب أعماله المسرحية بهذا الشكل الكثيف والمتكرر حتي أصبحت ظاهرة فى مسرحه؟ .. مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر.. نموذجاً".

تساؤلات الدراسة:

أولا: ما أهم سمات وخصائص العلاقة بين الحاكم والمحكوم كما صّورها مسرح سعدالله ونوس من خلال النص المسرحي "مغامرة رأس المملوك جابر" ؟، وما الأسباب المؤدية لطبيعة تلك العلاقة؟.

ثانياً: ما صورة الحاكم كما تعكسها مسرحية سعد الله ون، عينة الدراسة؟.

ثالثاً: ما صورة المحكوم كما تعكسها مسرحية سعد الله ونوس، عينة الدراسة؟.

رابعاً: ما رأى الحاكم فى المحكوم ورأى المحكوم فى الحاكم كما تعكسهاعينة البحث؟

أهمية الدراسة :

١- تتناول هذه الدراسة علاقة حيوية لا يمكن تصور استمرارية الواقع البشرى بدونها وهى العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

٢- خطورة الآثار المترتبة على اشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

أهداف الدراسة :

١- التعرف على اتجاهات سعدالله ونوس فى تناوله للعلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مسرحه .

٢- التعرف على طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم كما تعكسها عينة الدراسة.

مجتمع الدراسة: تعتبر جميع النصوص المسرحية التى قام بتأليفها الكاتب السوري سعد الله ونوس وتناولت فى مضمونها العلاقة بين الحاكم والمحكوم هى مجتمع الدراسة التحليلية للمضمون والإطار المجتمعى لها.

نوع الدراسة ومنهجها :_تعد الدراسة من الدراسات الوصفية فى تحليل المضمون

تحليل المضمون: هو "أسلوب للبحث العلمى يسعى إلى وصف المحتوى"[٣]، كما يقدم "طرقاً موضوعية ومنتظمة لتقييم العناصر الفردية التى تشكل معاً الحدث الاتصالى ككل[٤]. لذلك فإن تحليل المضمون سيكون الأداة الأساسية التى سوف تعتمد عليها الباحثة فى بحثها هذا.

العينة وطريقة اختيارها : اختارت الباحثة الطريقة العمدية نص مغامرة رأس المملوك جابر.

المسرح السياسي عند سعد الله ونوس:

مسرح سعد الله ونوس هو مسرح سياسي بكل تأكيد، ولكن سعد الله ونوس يحبذ أن يسمي مسرحه مسرح التسييس، ويؤكد أن هناك فارق كبير بين "المسرح السياسي" و "مسرح التسييس"، ويعرفه ونوس بأنه حوار بين مساحتين، الأولى هي العرض المسرحي الذي تقدمه جماعة تريد أن تتواصل مع الجمهور وتحاوره والثانية هي جمهور الصالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشكلاته، ويقول ونوس حول امكانية تطبيق مسرح التسييس الخاص به: "حتى الآن لا يزال هذا الحوار صعباً، فمن جهة، هناك التقاليد المسرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار، أو إقامته بصورة غير مباشرة وضمنية. وهناك أيضاً – وهذا أهم – طبيعة المتفرجين أنفسهم وموانعهم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشرة الحوار والانسياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم.

لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار. كأن نضع في سياق العمل متفرجين يتحدثون لحسابهم، ويناقشون، ويقدمون نموذجاً لما يستطيعه المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه، طبعاً نحن لسنا من السذاجة بحيث نعتقد – كما ظن أحد الكتاب في تعليقه على "حفلة سمر" أن المتفرجين الحقيقيين لن يكتشفوا أن هؤلاء الذين يجلسون بينهم، ويشتركون في النقاش والحوار، هم ممثلون مدربون على أدوارهم، ولكن كما قلت سابقاً: إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت ، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مساحتي المسرح: العرض والمتفرج . ومن المؤكد أن هذه الوسائل ليست كافية وحدها، وقد تتحول إلى مسألة شكلية وتقنية، ما لم يتوفر الأمر الأهم والأساسي في إثارة الحوار وتشجيعه وأعني أن تتوفر في العرض المسرحي – أي في المساحة الأولى – الشروط اللازمة لإثارة الحوار، كارتباط الموضوع بحياة المتفرج ومشاكله، ونوع المعالجة وشكلها. على أن هذه الشروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئة وبنيتها"[٥].

ومسرح التسييس والتحريض على الثورة واضح في أغلب نصوص ونوس، فمثلا، في مسرحية "مغامرة رأس المملوك جابر" نجده يحرض الجمهور على أن يعرفوا حقوقهم وينتزعوها من الحاكم، وألا يصمتوا على ظلم السلطة الحاكمة لهم، وأن يتركوا السلبية واللامبالاة وأن يقتلوا الخوف قبل أن يقتلهم:

المجموعة : إذا هبط عليكم ليل ثقيل وملئ بالويل. لا تنسوا أنكم قلتم يوما.. فخار يكسر بعضه.. ومن تزوج أمنا نناديه عمنا من ليل بغداد العميق نحدثكم . من ليل الويل والموت والجثث نحدثكم[٦].

العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مسرح سعد الله ونوس

تمهيد:

مرَّ سعد الله ونوس في حياته المسرحية بثلاثة مراحل أساسية، المرحلة الأولى، كانت قبل نكسة ١٩٦٧م، وبدأت سنة ١٩٦١م. وقد "كتب فيها مجموعة من المسرحيات القصيرة التي تكشف عن هموم فلسفية ذات أصداء وجودية"(٧). وهي مسرحيات: فصد الدم، والرسول المجهول في مأتم أنتيجونا، وعندما يلعب الرجال، وجثة على الرصيف، ومأساة بائع الدبس الفقير. وفي كتاباته في هذه المرحلة أدان سعد الله ونوس سلبية المحكوم، وعمل على توعيته وتحريضه على العمل الإيجابي. "وشخصيات سعد الله ونوس في معظم مسرحياته القصيرة هي شخصيات من لحم ودم، وليست شخصيات ذهنية تعادل أفكاراً"(٨). ومن ضمن مسرحيات تلك المرحلة التي عالجت قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم مسرحية "لعبة الدبابيس" التي أفاد منها – فيما بعد – بعد أن عمق تأملاته في مفهوم السلطة الحاكمة في مسرحيته "الملك هو الملك"؛ حيث قدم تشريحاً دقيقاً لألية عمل الحاكم. والمسرحية الأخرى التي ناقشت قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم في هذه المرحلة هي مسرحية "مأساة بائع الدبس الفقير"، التي سلطَّ ونوس من خلالها الضوء على طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم؛ حيث أظهر أن هذه العلاقة يحكمها قانون الإرهاب والاستبداد، وأدان فيها المحكوم، حيث أظهر سلبية المحكوم وخوفه من الحاكم، كما أوضح بطش وظلم الحاكم للمحكوم. والمسرحية الثالثة التي عالجت العلاقة بين الحاكم والمحكوم في هذه المرحلة هي مسرحية "الرسول المجهول في مأتم أنتيجونا"، وهي مسرحية تعتبر انتداداً لمسرحية "بائع الدبس الفقير"؛ حيث إنها تقوم في نفس الساحة وبنفس الجوقة، كما يوجد بها نفس المخبر الذي يصبح هو الحاكم في هذه المسرحية، وهو الذي يغتصب خضرة بعد أن أوقع بخضور في مسرحية "بائع الدبس الفقير"، وكان السبب في موته.

والمرحلة الثانية من مراحل سعد الله ونوس الابداعية بدأت بعد نكسة١٩٦٧م، وكتب ونوس في هذه المرحلة عدة مسرحيات، ناقش في أغلبها قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهي مسرحيات: "حفلة سمر من أجل ٥ حزيران"، "مغامرة رأس المملوك جابر"، "الفيل يا ملك الزمان"، و"الملك هو الملك". وهذه المسرحيات الأربعة سوف يتم تناولها في هذه الدراسة. وهناك مسرحيات في هذه المرحلة أيضاً، هي: "رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة"، و"سهرة مع أبي خليل القباني". وفي مسرحية "رحلة حنظلة" يتناول ونوس الحياة اليومية لمواطن بسيط، مغلوب على أمره، ولكن القمع والظلم يلاحقانه في كل مكان رغم محاولاته الابتعاد عن التدخل في

الشئون العامة، وفي النهاية يعرف حنظلة الحقيقة، ويتحول من شخص سلبي إلى شخص إيجابي. أما مسرحية "سهرة مع أبي خليل القباني" فيعرض فيها ونوس حكاية أبى خليل القباني، وكيف أنشأ مسرحه في خمسينيات القرن الماضي، والصعوبات التي واجهته في إنشاء هذا المسرح. وبعد هذه المرحلة تبعتها عشر سنوات عجاف في حياة ونوس الإبداعية؛ فقد توقف عن الكتابة نهائياً، ربما حلَّ اليأس والاحباط الرجل من الحالة السياسية وقتذاك، أو من الحالة الاجتماعية السائدة في هذا العصر، ربما كانت استراحة محارب، ربما كانت مرحلة تأمل وبحث عن الذات، وربما كل ما سبق.

وتأتي المرحلة الثالثة والأخيرة من إبداعات سعد الله ونوس، التي بدأها بمسرحيته "الاغتصاب"، التي عالج فيها القضية الفلسطينية، ثم كتب مسرحية "منمنات تاريخية"، "يوم من هذا الزمان"، "أحلام شقية"، "طقوس الإشارات والتحولات"، "ملحمة السراب"، "ذاكرة النبوءات"، ومسرحية "بلاد أضيق من الحب"، ثم كانت أخر مسرحياته هي "الأيام المخمورة" التي سنة ١٩٩٧.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم في النص المسرحي "مغامرة رأس المملوك جابر":

يوجد شكلان محددان للمسرحية المرتبطة بالتراث، الشكل الأول هو ارتباط الكاتب بالتاريخ، أي بالتجربة التاريخية، والشكل الثاني، فو الذي يمزج فيه الكاتب مزجاً متعمداً بين التاريخ والواقع؛ فيتداخل التاريخ مع الواقع المعاصر للكاتب المسرحي، على نحو يصنع منهما نسيجاً واحداً. "فالوعي بالتراث، لا تصبح له فعالية حقيقية إلا إذا ارتبط بوعي مماثل للواقع، لأنه في هذه الحالة وحدها يمكن أن ينشأ جدل عميق ومثمر، وبما أن التجربة التاريخية قد صارت ماضياً منتهياً، فإن استعادتها يمكن أن يكون لها مغزى بالنسبة"[٩].

فكرة وملخص مسرحية "مغامرة رأس المملوك جابر" :

المقدمة المنطقية للعمل المسرحي يقصد بها "المغزى الذي يريد المؤلف أن يوصله للمشاهد، وهي محصلة وخلاصة الرواية، وقد تكون مضموناً إنسانياً يدور حول مشكلة من المشكلات، أو يبرز نوعاً من العلاقات الاجتماعية، وقد تكون الفكرة قومية أو تكون فكرة عالمية، ويمكن أن أن يتم تلخيصها في جملة واحدة"[١٠]. وتدور أحداث المسرحية في مقهى شعبي – ولكن مؤلفها يقول أن مكان المقهى ليس شرطاً؛ فمن الممكن أن تقدم في أي مكان، وفي هذا السياق يقول سعد الله ونوس: "يمكن تقديم هذه المسرحية في أي مكان، وفي أي مساحة أنا أضعها الآن في

مقهى، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها في أي مكان"[١١] – ويوجد عدد من الزبائن يتفرقون بشكل غير مرتب على المقاعد الموجودة بالمقهى، بعضهم يدخن النرجيلة وبعضهم يحتسى بعض المشروبات المختلفة، مثل الشاي والقهوة، وبين هؤلاء نلاحظ يحرك عامل القهوة (الخادم) فيما بين الزبائن ليقوم بخدمتهم في حركة سريعة ونشيطة، والأغاني تنبعث من الراديو. يدور أحاديث جانبية غير مرتبة بين رواد المقهى، ولكن أغلب رواد المقهى، وربما جميعهم ينتظر قدوم مؤنس الحكواتي، الذين ينتظرونه كل يوم في نفس هذا الموعد ليقص عليهم بعض الحكايات:

الخادم : (من طرف المقهى) ها هو العم مؤنس. كل الزبائن ينتظرون تشريفك.[١٢]

يبدأ العم مؤنس في سرد حكايته، وهي حكاية المملوك جابر، ذلك الشاب الذكي الطموح، الذي انتهز فرصة الخلاف بين خليفة البلاد ووزيره، وأسرع إلى الوزير لتقديم خدماته إليه، واستعداده بأن يضحي بحياته، وتوصيل الرسالة التي يبغي الوزير لإرسالها إلى ملك العجم ولا يستطيع؛ نظراً لقوة الإجراءات الأمنية التي يفرضها الخليفة على الحدود. وقد وعده الوزير بأن يزوجه من حبيبته زمرده، وأن يجزل له العطاء وأن يقلده منصب رفيع في البلاد إذا نجح في توصيل الرسالة إلى ملك العجم، وينجح المملوك جابر من الخروج من البلاد والذهاب إلى ملك العجم وتوصيل رسالة الوزير إليه. ولكن بدلا من مكافأة المملوك جابر من قبل الوزير، يوصي في نهاية رسالته إلى ملك العجم، والتي كتبها الوزير على رأس المملوك جابر، ملك العجم بأن يقتل المملوك جابر فور الانتهاء من قراءة رسالته حتى يبقى الأمر سراً بينهما فقط، وبالفعل يأمر ملك العجم بقطع رأس المملوك جابر.

وفي هذه المسرحية نجد أن سعد الله ونوس "تعمدَّ أن يترك ثغرات ومساحات فارغة لكي يملأها العرض المسرحي بما يلائم الظروف والمكان"[١٣].

صورة الحاكم وصورة المحكوم كما يصورهما نص "مغامرة رأس المملوك جابر":

عكس هذا النص المسرحي عدة ملامح للحاكم لعل أهمها :

– الحاكم ديكتاتور:

الحاكم – في هذه المسرحية – هو حاكم ديكتاتور، لا مجال للديمقراطية في البلاد، فالحاكم يأتي إلى الحكم رغماً عن إرادة الشعب، ويرحل عن الحكم أيضاً دون إرادة الشعب. كما أنه يعاقب كل من يتكلم في الأمور السياسة بالشنق:

الرجل الأول : عندما يجلس على العرش الخليفة لا أحد يطلب من عامة بغداد رأياً أو نصيحة.(١٤).

- الحاكم لا يحقق انتصارات للشعب

وهذا واضح من حديث الزبائن في المقهى مع بعضهم البعض، حينما يتمنون أن يسمعوا قصص البطولات والانتصارات:

زبون ٢ : جفت قلوبنا يا رجل. نريد أن نسمع عن البطولات.

زبون٣ : وأخبار الانتصارات.(١٥)

- الحاكم ظالم لمحكومه

وهذا واضح من حوار الزبائن مع بعضهم البعض، وهم يتمنون سماع الحق الذي يغلب الباطل، والعدل الذي يغلب الظلم؛ فهذا الحديث يدل على أن المحكومين (الشعب) يعيشون في مجتمع ظالم وغير عادل، مجتمع يسود فيه انتصار القوي على الضعيف، ويسود فيه القهر والظلم:

زبون ١ : نريد أن نسمع عن الحق الذي يغلب الباطل.

زبون ٥ : والعدل الذي يغلب الظلم(١٦).

- الحاكم لا يعنيه سوى مصلحته الذاتية فقط

الحاكم لا يفكر إلا في مصلحته الذاتية فقط، وكيف يحافظ على كرسي الحكم، مهما كلفه هذا الحفاظ من تضحيات، وهو في سبيل هذا لا يتوانى أن يضحي بشعبه كله، وأن يجلب له الخراب، وأن يأتي بالمستعمر الخارجي ليستعمر البلاد ويقتل من يقتل من أفراد الشعب، ويسلب كل أموال ومقدرات الشعب، بشرط أن يحافظ له هذا المستعمر على كرسي العرش.

- مخادع وغدار ولئيم ولا يؤتمن:

وهذه سمات أظهرها النص المسرحي "مغامرة راس المملوك جابر" في أكثر من موضع في المسرحية، وظهرت هذه السمة حينما غدرَّ الوزير بالشاب المملوكي جابر، الذي تطوع وضحى برقبته في سبيل خدمة الوزير وأوصل رسالته إلى الملك منكتم (ملك العجم)، وقد وعده الوزير بأن يزوجه حبيبته زمرده، وأن يوليه منصباً هاماً في البلاد ، وأن يجزل له العطاء في مقابل هذه التضحية الكبيرة الذي يضحي بها المملوك جابر حتى ينقذ رقبة الوزير ويجعل كرسي العرش من نصيبه، ولكن الوزير غدرَّ به وكتب إلى ملك العجم في نهاية رسالته، التى كتبها على فروة رأس المملوك جابر، بأن يقتل المملوك جابر بعد الانتهاء من قراءة رسالته حتى يبقى الأمر سراً بينهما.

زبون ٢ : لعنة الله عليه . يغدر ولا يحفظ عهدا[١٧].

- **بوليسي ..قمعي :**

في هذا النص يصور سعد الله ونوس النظام الحاكم بأنه نظام بوليسي وقمعي، لا يتورع في تنكيل وتعذيب كل من يعارضه ووضعه في السجون:

المرأة الثانية : ومن السجون لا تنفتح أبوابها إلا إلى الداخل.[١٨] .

- **الحاكم يتلاعب بالمحكوم كقطعة الشطرنج**

في نص "مغامرة رأس المملوك جابر" يصور لنا مؤلفه المحكوم بأنه مثل قطعة الشطرنج في يد الحاكم، حيث نرى الخليفة ووزيره يتصارعان على السلطة، ويستخدمون الشعب كأداة يتلاعبون بها، وكأنه قطعة شطرنج يتلاعبون بها:

الحكواتي : (...) والتوتر في ازدياد. ترقب في قصر الوزير. وحركة مشاورات في قصر خليفة بغداد. وكلعبة الشطرنج ، كل يحك رأسه، ويفكر كيف يحرك أحصنته وجنوده. اللاعبان خليفة بغداد ووزيرها، ورقعة الشطرنج بغداد وعامتها.[١٩]

ملامح صورة المحكوم في هذا النص كثيرة أهمها :

يعيش حياة الذل والقهر

المحكوم في هذه المسرحية يعيش حياة غير مستقرة، حياة يملؤها البؤس والشقاء والمرارة، وهو لذلك يبحث دائماً شيء ينسيه جزء من مرارة حياته التي يحياها. وسعد الله ونوس يعود بالمتلقي إلى التاريخ العربي، وبالتحديد إلى عصر شعبان المنتصر بالله، ويسقط هذا العصر القديم على العصر الحالي، ويقارن بين العصرين، ويخرج بأن العصرين متشابهان تماماً، فالحاكم يشبه الحاكم والمحكوم يشبه المحكوم، وبمعنى أخر لا شئ تغير بتغير الزمن، فمهما تغير المكان وتغير الزمان فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم في المجتمع العربي لا تتغير، فالصراع بين الطبقة الحاكمة قائم، وخنوع الشعب واستسلامه لحكامه قائم، مهما كان لهذا الحاكم من جبروت وطغيان وظلم لشعبه.

- **متفائل :**

وهذه السمة أظهرها سعدالله ونوس على لسان مؤنس الحكواتي، وذلك عندما طالبته زبائن المقهى بأن يقص عليهم سيرة الظاهر، لأنها تفرحهم ونعطيهم الأمل في الحق والخير والانتصار وجلب البطولات لهم؛ فيرفض الحكواتي طلبهم، ويطلب منهم أن ينتظروا دور هذه القصة، وأن يسمعوا قصة المملوك جابر، لأن قصة المملوك جابر هذا هو زمانها وأوانها،

فلكل شيء أوان، وأوان الظاهر (رمز البطولة والعدل) لم يأتي بعد، ولكنه آت لا شك في ذلك:

الحكواتي : لأنها في تسلسل الكتاب، التي تقود إلى زمن الحكايات المفرحة.. لكل شئ أوان، وسيرة الظاهر دورها بعد قصص هذا الزمان.. لا تخافوا.. ستأتي سيرة الظاهر، وستسمعونها خلال سهرات وسهرات ، لكن القصص مرهونة بتسلسلها وأوانها. لكل قصة أوان(٢٠).

يعيش في فقر مدقع:

وثاني ملمح في صورة المحكوم بعد التفاؤل هو الفقر، فالشعب يعيش في حالة فقر شديد، وهذا الفقر سببه ظلم الحاكم واستعباده لشعبه، فمبدأ الحكام المستبدين في كل عصر وفي كل أون هو "جوع تسد":

المجموعة : ونحن عامة بغداد آثرنا السلامة والأمان، ننزف دماءنا الليل والنهار بحثاً عن لقمة العيش. ومحظوظ من تتوفر له في بغداد لقمة العيش(٢١).

– مظلوم :

كل أحداث مسرحية "مغامرة راس المملوك جابر" تدور حول مدى ظلم الحاكم لمحكومه، ولو برهنت الباحثة على ذلك لكتبت كل حوار المسرحية تحت هذا العنوان "الحاكم يظلم المحكوم ظلماً شديداً"، فها هو يفرض الضرائب الباهظة على عامة الشعب ، حتى ينفقها على الجيوش الخارجية التي استدعاها لتثبيت دعائم حكمه، ويحصلها منهم بالقوة الجبرية، بالرغم أن أغلبهم لا يجدون قوت يومهم:

المرأة الأولى : أي نعم ضريبة مقدسة لتأييد مولانا الخليفة هذا ما قالوه. ومن أين لي أن أدفع الضريبة؟ لو كانت روحي وأرواح أطفالي معلقة بثلاثة قروش، ما استطعت افتداءها. لا عمل ولا مكسب. ولا شئ. كنا نسلق كل يوم قبضة من البرغل، وننتظر الفرج. أما الآن.. أخذوا كل شئ. إنهم يدورون على البيوت. يأخذون ما تحت الناس وما فوقهم، إن لم يدفعوا ما عليهم.(٢٢)

– مسالم وخانع ومطيع وسلبي:

المحكوم في هذه المسرحية هو إنسان مسالم للغاية، ولا يعترض على شئ يحدث من قبل حكامه، فهو يتلقى الأوامر وينفذها على الفور كما ينبغي، دون أن يظهر أي معرضة أو امتعاض، ولا يبدي:

الرجل الثاني : ويأمروننا بالطاعة.

المجموعة : فنطيع[٢٣].

منعزل ومغترب عن الحاكم وعن وطنه:

المحكوم – في هذا النص – لا يعنيه من أمر حاكمه شيئاً، ولا يعنيه من يحكمه، ومن يتولى شئون حكمه، حتى لو حدث صراع وصدام على السلطه، لا يتدخل المحكوم في هذا الصراع وهذا الصدام؛ بالرغم من أن هذا الصراع سيؤثر عليه بالسلب لا ريب في ذلك، فقط ينزوي ويتفرج، وكأنه مغترب عن حكامه:

الحكواتي : (...) وكان كأهل بغداد آخر من يعنيه ما يجري بين الخليفة وسيده الوزير.[٢٤]

الجميع : (...) لكن إذا التفتم يوما ووجدتم أنفسكم غرباء في بيوتكم.[٢٥]

– طيب وساذج :

المحكوم إنسان طيب لدرجة السذاجة، فهو لا يفكر في أي شيء سوى رغيف الخبز وأن يعيش في أمان بعيداً عن مشاكل السياسة، كما أنه يعتقد أنه ليس من حقه أن يفكر أو يقول رأيه، أو يعترض على شيء لا يعجبه، أو يبدي رأيه فيمن سيحكمه، هو يعتقد أن الحاكم من طبقة وهو من طبقة أخرى، وأن عليه ينفذ الأوامر ويطيع الحاكم طاعة عمياء دون تفكير أو تمعن في الأمر، كما أنه يحاول التودد والتقرب من الحاكم، فالحاكم في نظره هو زوج أمه الذي يجب أن يكون بمثابة الأب أو العم:

الرجل الثالث : الضروري بالنسبة لنا هو الخبز والأمان لا سبب الخلاف.

المرأة الثانية : أى والله ، هذا كل شئ الخبز والأمان.[٢٦]

– منتظر :

ظاهرة الانتظار سمة واضحة في المحكوم في هذا النص، فالشعب ينتظر كل شيء، ولا يسعى هو لتحقيق أي شئ ، ينتظر من سيعتلى كرشى العرش كي يحكمه، ينتظر ما ستسفر عنه حدة الخلافات بين الحاكم ووزيره، ينتظر كل شيء، حتر رغيف العيش ينتظره:

الرجل الثاني : ما الفائدة؟ سننتظر. لا بد من الخبز.[٢٧]

الرجل الثاني : إننا منتظرون على كل حال[٢٨]

- جبان :

الخوف والجبن سمة واضحة من سمات المحكوم في مسرح سعد الله ونوس، وهذا واضح في مواضع كثيرة من المسرحية؛ فهو يؤثر السلامة ويبتعد عن أي أمور سياسية، حتى لا يتعرض للتنكيل والتعذيب من قبل الحاكم وأعوانه، كما يخاف من رؤية عسكر الحاكم في أي مكان، وإذا رآه ربما يبال في سرواله، بل أحيانا يكون الموت عنده أهون من رؤية عسكري:

زبون ٣ : يا سيدي من زمان هذا هو طريق الأمان.[٢٩]

المرأة الثانية : أجارنا الله.. فاجأتني وجوههم عند المعنطف، فارتخت ساقاي، وكدت أسقط.

- يعيش كالعبيد

يشعر المحكوم أن الدولة تتكون من طبقتين لا ثالث لهما، طبقة السادة، وهم حكام البلاد، وهذه الطبقة لها كل شئ، وتملك كل شيء في البلاد، وطبقة العبيد، وهي عامة الشعب، وهذه الطبقة لا حقوق لها، بل هي تعيش لخدمة السادة. وهذا ما أكدَّ عليه سعد الله ونوس في أكثر من موضع من مسرحيته هذه:

الرجل الأول : لدى السادة دائما أسباب كافية للخلاف. أما نحن فلا ناقة لنا ولا جمل[٣٠].

الرجل الرابع : إلا أني لا أحب أيضاً عيشة الكلاب التي أعيشها. كما لا أحب أن أدفع رأسي ثمناً لاضطراب لا رأي لي فيه.[٣١]

جاهل:

المحكوم في مسرحية "مغامرة المملوك جابر" هو إنسان جاهل، لا يعرف شيء عما يحدث من حوله، ولا يسعى إلى معرفة شئ، بل لا يرغب في معرفته ، ويتحاشى أن يعرف أي شئ؛ خوفاً من أن يكون هذا الشئ متعلقاً بالحاكم؛ وبالتالي قد يناله أذى من هذا الحاكم. ويتضح ذلك بوضوح عندما تحدث الأزمة بين الخليفة ووزيره ويتصارعان على كرسي الحكم، ويستعين كلا

منهما بالجيوش الخارجية، فيحدث الكساد في البلاد، وتجوع العباد، والعباد لا يتدخلون في شئ ولا يعرفون ما سبب هذا البلاء الذي حطَّ بهم:

الحكواتي : هذا ما حدث من جابر، أما أهل بغداد، فلم يكونوا يعرفون ما يخرج من مدينتهم، أو كيف تتطور الأحداث من حولهم.

زبون : مساكين. دائما مثل الأطرش في الزفة(٣٢).

- على حافة اليأس :

المحكوم في هذه المسرحية يعيش حياة بؤس وشقاء، ولا أمل عنده في أن يعيش في المستقبل حياة رغد وترف؛ لأنه لا يجد قوت يومه بسبب الكساد الذي ينتشر في البلاد، والذي كان سببه صراع الحاكم على السلطة مع خصومه، واستعانته بالجيوش الخارجية لتدعيم نظام حكمه، مما جعله يفرض الضرائب الباهظة على المحكوم، الأمر الذي جعل أغلب الشعب يتمنى الموت أكرم له، وجعل البعض يبيعون شرفهم ونخوتهم في سبيل إطعام أطفالهم:

الزوجة : هل أقسمت له إننا لم نذق طعاما منذ يومين.. منذ يومين لم نضع في أفواهنا لقمة خبز.

(...)

الزوج : لا .. ليس الآن .. لا أستطيع .. لا أستطيع..(٣٣).

رأي الحاكم في المحكوم كما يعكسه النص المسرحي "مغامرة رأس المملوك جابر"

- حقير ووضيع وجبان:

يرى الحاكم أن المحكوم حقير ووضيع وجبان، ولا يجب الإلتفات إليه أو الاهتمام به، ولا خوف منه على الإطلاق من ناحية السيطرة عليه أو توجيهه الوجهة التي يريدها الحاكم، إنه في نظر السلطة الحاكم مجرد عبد تعطي له الأوامر فينفذها فوراً دون نقاش، كما الحاكم لا يخشى رجال الدين؛ لأنه يراهم لا ينفذون كلام الله ولكن يعملون لمصلحتهم فقط:

عبد اللطيف : (...) . هناك دائما مفاجأت غير محسوبة. ومن يدري قد تستغل العامة هذه الظروف، فتشعل نار الشغب. حينئذ لا أحد يعرف كيف يتحول الموقف.

الوزير : (باحتقار) العامة! ومن يبالي بالعامة؟ لا .. هؤلاء لا يثيرون أية مخاوف. يكفي أن تلوح لهم بالعصا حتى يمحوا، وتبتلعه من ظلمات بيوتهم.(٣٤).

رأي المحكوم في الحاكم كما يعكسه نص "مغامرة رأس المملوك جابر"

- يخشى ثورته

بالرغم من أن الحاكم لا يهتم بأمور وشأن ومصلحة المحكوم، ولا يعيره أي اهتمام، ولكنه يتحول إلى أسد مفترس ينقض عليه ويفترسه إذا شعر بأن الشعب بدأ يفكر في المطالبة بحقوقه، بل تتوحد أفراد السلطة الحاكمة، وتنبذ خلافاتها عندما تشعر بأن أفراد من الشعب بدأوا يفكروا في حقوقهم المسلوبة:

الرجل الثالث : هو ألا يتدخل العامة في شؤونهم وخلافاتهم، ولو فعلنا لتوحدوا فوراً، واتجهوا بكل قواهم نحونا.

المرأة الأولى : وبعدئذ تمتلئ السجون.(٣٥)

لقد حاول ونوس في مسرحه المستمد من التراث أن يخلق حالة من التواصل المباشر بجمهور مسرحه، حتي يستطيع خلق جيل جديد يعي مستقبله ويقرر مصيره بنفسه، وعن هذا يقول ونوس: "إنني أبحث عن عرض لحكاية تهمنا، ولذا أتصور استخدام كل الوسائل الممكنة كي نصل إلى هذا العرض الحي الذي أتمناه "فرجة" ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره"(٣٦).

نتائج البحث

خرجت الدارسة من هذه الدراسة بعدة نتائج وهي :

- كشفت الدراسة أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة تنافرية، سلبية، ومتوترة، قائمة على الظلم والاستبداد من قبل الحاكم والذل والخضوع من قبل المحكوم . أن هناك حالة انفصال تامة بين الحاكم والمحكوم، وأن كلاهما مغترب عن الآخر.
- العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى نص "مغامرة المملوك جابر" هى قائمة على الظلم والاستبداد من قبل الحاكم والذل والخضوع من قبل المحكوم.

- يدعو النص المسرحي "مغامرة رأس المملوك جابر" المحكوم إلى الاستيقاظ من الغفوة الطويلة التى لازمته، وإلى الثورة على الظلم والقهر الذى يمارسه الحاكم عليه، وأن يرفض كل أساليب القهر التي يفرضها عليه الحاكم.
- يرى الحاكم أن المحكوم حقير ووضيع وجبان، ولا يجب الإلتفات إليه أو الاهتمام به، ولا خوف منه على الإطلاق، إنه في نظر الحاكم مجرد عبد، تُعطي له الأوامر فينفذها فوراً دون نقاش.
- أظهر نص "مغامرة رأس المملوك جابر" رجال الدين بأنهم يعملون لمصلحتهم الذاتية.
- الحاكم – في مسرحية "مغامرة رأس المملوك جابر" – هو حاكم ديكتاتور، بوليسي، قمعي مستبد ، ظالم، مخادع، غدار، لئيم، لا يؤتمن، لا يحقق انتصارات للشعب. ولا يعنيه سوى مصلحته الذاتية فقط.
- يرى نص "مغامرة راس المملوك جابر" أن المحكوم ما هو إلا إنسان طيب، مسالم ، جبان، جاهل، سلبي ، مغلوب على أمره، يشبه قطعة الشطرنج في يد الحاكم، يعيش حياة يملؤها البؤس والشقاء والمرارة، ولا أمل عنده في أن يعيش في المستقبل حياة رغد وترف.
- المسرحية تعطى الأمل فى المستقبل ، وتؤكد إنسانية الإنسان ، وأن الخير قادم ، وأن ظلام الظلم والاستعباد سينجلى، وأن النهار قادم قريباً.
- كل أحداث مسرحية "مغامرة راس المملوك جابر" تدور حول مدى ظلم الحاكم لمحكومه.
- ظاهرة الانتظار سمة واضحة في المحكوم في هذا النص، فالشعب ينتظر كل شيء، ولا يسعى هو لتحقيق أي شئ.
- الحاكم يتحول إلى أسد مفترس ينقض على محكومه ويفترسه إذا شعر بأنه بدأ يفكر في المطالبة بحقوقه.
- المحكوم في هذه المسرحية يعيش حياة العبيد..

المراجع :

[١] – نبيل فرج: الفكر النقدى والالتزام الإنسانى فى مسرح سعدالله ونوس، القاهرة، جريدة الأهرام، ع ٤٦٩٢٢، السنة ١٣٩، ٢٦ مايو ٢٠١٥، ص ٢٣.

[٢] – أحمد هاشم: المسرح الملحمى فى مصر، القاهرة، مجلة أفاق المسرح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١٢ يونية ١٩٩٩، ص٢٧٣.

[٣] – سمير حسين: بحوث الاعلام . دراسات فى مناهج البحث الإعلامى، ط٣، القاهرة ، عالم الكتب، ١٩٩٩م ، ص ٢٣٣.

[٤] – عادل فهمى البيومى: دور التليفزيون المصرى فى تكوين الوعى الاجتماعى ضد الجريمة ، رسا لة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة ، ١٩٩٥، ص ٤١.

[٥] – سعد الله ونوس: مغامرة رأس المملوك جابر، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩، ص ص١١-١٢.

[٦] – سعد الله ونوس: مغامرة رأس المملوك جابر، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ١٠٦.

[٧] – حسن عطية: الوعي التاريخي في أعمال سعد الله ونوس، القاهرة، مجلة فصول، ع ١، ١٩٩٧، ص ٣٤٥.

[٨] – فخري صالح: مسرح سعد الله ونوس، مجلة فصول، مج١٤، ع ١، ١٩٩٥م، ص٣٢٦.

[٩] – عز الدين إسماعيل: توظيف التراث في المسرح، القاهرة، مجلة فصول، مج ١، ع ١، ١٩٨٠، ص ١٧٤..

[١٠] – عدلي سيد رضا: ترشيد الدراما الإذاعية في مصر، القاهر، رسالة دكتوراه، غير منشورة، ج القاهرة، كلية الإعلام، ١٩٩٢، ص ٦٩.

[١١] – المصدر السابق، ص ١٤.

[١٢] – المصدر السابق، ص ١٨.

[١٣] – محيي الدين صبحي: نصوص مسرحية سورية من الستينات، سوريا، مجلة الموقف الأدبي ، ع ١، ١٩٧٢، ص ٣٢.

[١٤] – المصدر السابق، ص ٢٣.

[١٥] – المصدر السابق، ص ٢٠.

[١٦] – المصدر السابق، ص ٢٠.

[١٧] – المصدر السابق، ص ١٠٤.

[١٨] – المصدر السابق، ص ٢٣.

[١٩] – المصدر السابق، ص ٧٣.

[٢٠] – المصدر السابق، ص ص ٢٠ – ٢١.

[٢١] – المصدر السابق، ص ٢٤.

[٢٢] – المصدر السابق، ص ص ٩٤ – ٩٣.

[٢٣] – المصدر السابق، ص٢٢.

[٢٤] – المصدر السابق، ص ٢٥.

[٢٥] – المصدر السابق، ص ١٠٦.

[٢٦] – المصدر السابق، ص ٣٩.

[٢٧] – المصدر السابق، ص ٣٤.

[٢٨] – المصدر السابق، ص ٣٧.

[٢٩] – المصدر السابق، ص ٣٤.

[٣٠] – المصدر السابق، ص ٤١.

[٣١] – المصدر السابق، ص ٤٣.

[٣٢] – المصدر السابق، ص ٩٢.

[٣٣] – المصدر السابق، ص ص ٧٨ – ٨٠.

[٣٤] – المصدر السابق، ص ٥٦.

[٣٥] – المصدر السابق، ص ٤٢.

[٣٦] – صبري عبد العزيز: سعد الله ونوس والصور المرئية لفنون الفرجة الشعبية، القاهرة، مجلة المسرح، يونيه ١٩٩٧، ع ١٠٣، ص ٦.